الطريق الى المقبرة

توماس مان
ترجمة : محمود ابراهيم الدسوقى

كان الطريق الى المقبرة يمتد دائما بجانب الطريق السلطانى ، دائما محاذيا له حتى يبلغ غايته وهى المقبرة . وعلى جانبه الآخر تقوم فى البداية منازل للناس ، وابنية جديدة للضاحية ، كان بعضها ما يزال ينشأ ، ثم تلى حقول . أما ما يتعلق بالطريق السلطانى الذى كانت تقوم على جناحيه اشجار زان معقدة مد الله فى عمرها ، فكان نصفه مبلطا والنصف الآخر غير مبلط لكن الطريق الى المقبرة كان منتثرا بالحصباء انتثار خفيفا ، وهو ما اكسب طبيعة المدق المريح . وبين الاثنين . الطريق السلطانى والطريق الى المقبرة قد أمتد خندق ضيق جاف ملىء بالكلأ وازهار المرعى .

كان الاوان ربيعا يكاد يكون صيفا . فالدنيا تبتسم ، وسماء الله الزرقاء المستديرة ، الكثيفة قد اتخذت تعبيرا ترقشها قطع السحاب الصغيرة ، غريبا مضحكا . والطيور تسقسق بين فروع الزان وعلى الحقول تهب ريح معتدله . وكانت عربة تتسلل فوق الطريق السلطانى نحو المدينة ، قادمة من القرية التالية ، يدرج نصفها فوق الجانب المبلط والنصف الآخر فوق الجانب غير المبلط فى الشارع . والسائق تتدلى ساقاه على جانبى عريش العربة، يصفر كأنجس ما يكون الصفير . لكنه فى الجزء الخلفى من العربة وفى نهايته كان كلب صغير اصفر اللون يدير ظهره للسائق ، ونظره الى الطريق الذى جاء منه متجاوزا بوزه المدبب ، فى هيئة من الجد والتركز تجل عن الوصف . وكان كليبا لا يقارن به كليب ، يساوى ذهبا ويفرح القلب . على انه من الاسف ليس مما يدخل فى موضوعنا وفى ثم نصرف النظر عنه .

وكانت جماعة من الجند آتية من الثكنة القريبة تسير فى خوذها تغنى ، وعربة ثانية تتسلل نحو القرية التالية قادمة من المدينة سائقها نائم ، وليس عليها كلب صغير ــ الامر الذى جعل هذه الناقلة عديمة الاهمية تماما . وكان فتيان من الصناع يسيران فى الطريق احدهما احدب والآخر مارد ، حفاة الاقدام ، لانها كانا يحملان حذاءيهما على ظهريهما ، يصيحات بالسائق النائم منذرين ، ويتابعان المسير . وقد كان المرور هادئا يتم بلاتعقيدات ولاحوادث .

اما فى الطريق الى المقبرة فلم يكن يسير سوى رجل واحد . كان يمشى متئدا ، مطرق الراس ، متوكئا على عصا سوداء . وكان يسمى بيبسام ، لوبجوت بيبسام لا غير . ونحن نورد اسمه قصدا لانه فيما يلى قد كان مسلكه غرابة فى العجب . كان يرتدى ملابس سوداء ، لانه كان فى طريقه الى قبور احبائه ، يحمل قبعة عالية خشنة ، منحولة ، وردنجوتا بيضته السنون وسراويل ساق قصيرة كانت اقصر وكذلك اضيق مما ينبغى ، وقفازين سوداوين مهروشين فى كل مكان وكانت رقبته ، وهى رقبة مديدة ، يابسة ذات حنجرة كبيرة العقدة ، تطل من بنيقة قلاية متهدبة عند حوافها المهروشة . لكنه حين كان الرجل يرفع راسه وهو ما كان يفعله احيانا ليرى كم يبعد عن المقبرة ، كنت ترى شيئا ، ترى وجها نادرا ــ بلا سؤال وجها لا ينسى بسهولة .

ولم يكن مظهر لوبجوت بيبسام مفرحا ، فلم يكن يناسب ذلك الصباح اللطيف ، ولا انسانا يريد ان يزور قبور احبائه لانه كان ممعنا فى الكدر . لكنه اذا امكن ان يطلع احد على باطنه فلابد ان يسلم بأن هناك لهذا الكدر اسبابا كافية . فقد كان على شيء من الضيق . كيف ؟ ــ من الصعب افهام اناس مرحين امثالكم مثل هذا ــ فهو تعس قليلا ، اليس كذلك ؟ اسيئت معاملته بعض الشيء . واذا اردت ان تقول الحق . فلم يكن ما بالشيء القليل فحسب بل كان ايضا بدرجة كبيرة ، وكان من دون مغالاة رجلا منكوبا .

اولا كان يشرب الخمر . وسيأتى الكلام عن ذلك . ثم كان ارملا مهجورا من العالم بأسره ، فليس على الارض نفس تحبه وقد انتزعت منه زوجه لما انجبت له طفلا قبل وفاتها بستة اشهر ، وكان ثالث طفل . مات كما مات الآخران من قبله ، وقد مات احدهما بالدفتريا ولم يمت الآخر بشيء ، ولعله مات على وجه عام بعدم الكفاية . وكانه لم يكفه هذا اذ فقد على أثر ذلك وظيفته . طرد بصورة مهينة من عمله ومصدر رزقه . وكان لهذا صلة بتلك النزوة التى كانت أقوى من بيبسام .

ولقد قاومها من قبل واستطاع ذلك بعض الشيء وان كانت قد تغلبت عليه فى بعض الاوقات تماما . ولما حرم الزوج والولد ، وبات بلا معين ولا سند ، ووقف على الارض وحيدا ، تمكنت منه الرذيلة ، وقضى على مقاومته الى الروحية شيئا فشيئا . كان موظفا فى شركة من شركات التأمين نساخا من نوع ارقى ، يتقاضى شهريا تسعين ماركا من ماركات الريخ نقدا . لكن ادان نفسه فى حالة لم يملك فيها رشده باهمالات شنيعه ، وفصل اخيرا بعد تعدد انذاره بوصفه انه لا يعتمد عليه دواما ، وليس شأننا ان نقص مثل هذه الاشياء على كل حال

مليئة بالعبرة ولكنها والآن يسير السيد بيبسام فى الطريق الى المقبرة ، ويدفع بعصاه السوداء امامه ، تعبث الريح المعتدلة ايضا بانفه لكنها لا يحس لها مسا . وقد كان يسير رافعا حاجبيه عاليا يحملق فى الدنيا بنظرة جوفاء كئيبة ـ انسانا شقيا مقضيا عليه . وبغته ألم وراءه بصوت فانصت : حفيف رقيق يقترب من بعيد بسرعة زائدة ، فالتفت ، وتوقف عن السير . وكان مصدر ذلك دراجة يصر اطارها على الارض المنتشرة بالحصباء قادمة باقصى سرعة ، لكنها لم تلبث ان هبطت سرعتها ، اذ كان بيبسام واقفا فى وسط الطريق وكان يعتلى الدراجة شاب سائح خلى البال وهو فى الحق لم يزعم أو يطالب اطلاقا بان يكون من عظماء هذه الارض ولا من ذواتها . فهو يسوق آلة وسطا فى الجودة من اى مصنع كان . دراجة يبلغ ثمنها مائتى ريشمارك ، مخمنة على البديهة . وبها يجوب طرفا من الريف ، قد خرجت جديدة من المدينة ، ذات بدالين لامعين ، الى طبيعة الله الطلقة ، مرحى ! وكان الفتى يرتدى قميصا زاهى اللون ، وسترة رمادية فوقه ، وجيتر سبور ، الى اجرا كاسكيت فى الدنيا ـ كاسكيت هى بدع بين الكاسكيتات ، ذات مربعات بنية وزر فى اعلاها وكان تحتها شعر كالعهن المنقوش ، تطل منه ناصية كثة شقراء تشرف على جبينه . وكانت عيناه زرقاوين براقتين فاقبل كانه الحياة ، ودق الجرس ،

لكن بيبسام لم يتنح قيد انملة عن الطريق ، فظل واقفا يرعى الحياة بوجه جامد .

والقى عليه الفتى أو ألقت الحياة نظرة استياء ، وجاوزته متثاقلة ، فجعل بيبسام يسير الى الامام بالمثل . لكنه لما بات الفتى يتقدمه قال بيبسام متئدا ، موكدا توكيدا شديدا :

« رقم تسعة آلاف وسبعماية وسبعة » ثم زم شفتيه ، وخفض بصره راضيا ، بينما كان يحس نظرة الفتى أو نظرة الحياة تستقر فوقه حائرة . وكان الفتى قد التفت وراءه وهو ممسك بمقعده باحدى يديه ويسوق بالاخرى على مهل وسأله الفتى : كيف ؟..

فاعاد بيبسام قوله : « رقم تسعة آلاف وسبعماية وسبعة » لا شىء . سأبلغ عنك » .

فسأل الفتى : « ستبلغ عنى ؟ » . واستدار بالدراجة وابطأ فى سيره حتى اضطر ان يوازن بقضيب القيادة فى شىء من الجهد .

فاجابه بيبسام وهو على بعد خمس أو ست خطوات منه : « بالتاكيد » .

فسأل الفتى وهو يترجل : « لماذا ؟ » وظل واقفا يترقب كثيرا .

ـ ذلك ما تعرفه أنت كل المعرفة

ـ أنا لا أعرف شيئا .

ـ لابد أنك تعرف .

قال الفتى : « قلت انى لا أعرف

شيئا . ولا يهمنى أيضا أن أعرف فى كثير أو قليل . وتأهب بعد هذا لامتطاء دراجته ولم يدخل فى جدل بتاتا .

قال بيبسام : سأشكوك لانك تسير هنا لا هناك فى الطريق السلطانى . تسير فى الطريق الى المقبرة .

قال الفتى وهو يضحك ضحكة تنطوى على الاستياء وقد عيل صبره : لكن يا سيدى العزيز . انك لترى هنا آثار الدراجات على امتداد الطريق كله . فهنا يسير الجميع .

فرد عليه بيبسام : « هذا سيان . سأشكوك .

فصاح به الفتى وهو يمتطى دراجته : « افعل ما تشاء ! » وقد علا الدراجة بالفعل لكنه يوازن نفسه فأخفق فى امتطائها ثم عاد فطوح نفسه بساقه كرة أخرى ، واستقر فوق المقعد ، واعتدل فى جلسته ليضمن من جديد سرعة توائم مزاجه . وتكلم بيبسام بصوت أعلى يرتعش : « اذا مضيت فى سيرك هنا فى الطريق الى المقبرة ، فثق كل الثقة انى سأشكوك . » لكن الفتى لن يأبه له ، ومضى يسوق دراجته بسرعة متزايدة .

لو أنكم رأيتم وجه لوبجوت بيبسام فى هذه اللحظة لأجفلتم وللثتم ذعرا ، فقد زم شفتيه زمة تحول منها خداه بله أنفه المضطرم عن مواضعها كل التحول وحملقت عيناه تحت حاجبيه المرتفعين بصورة غير طبيعية ، فى الدراجة المنطلقة فى تعبير ينم عن الجنون . وبغتة اندفع الى الامام فقطع المسافة القصيرة التى كانت تفصله عن الدراجة عدوا ، ثم جذب كيس المقعد وتشبث به بكلتا يديه تشبثا شديدا ، وشفتاه فى تلك الاثناء تبديان فى زمهما مجهودا يفوق طاقة البشر . وجعل يجذب فى صمت ونظرات متوحشة ، وبكل قواه ، تلك الدراجة ذات العجلتين ، المجاهدة فى الاندفاع الى الامام ، المتأرجحة ذات اليمين وذات الشمال . ولا بد لمن رآه أن قد داخله الشك فى هل تعمد الرجل عن سوء قصد أن يعوق الفتى عن المضى فى طريقه أو كانت تستبد به الرغبة فى أن يشد الى الدراجة ، ليقفز الى خلفها ، ويعتليها مع سائقها ، ويسوقها بالمثل قليلا فوق بداليها اللامعين الى طبيعة الله الطلقة ، مرحى ! ولم تقو ذات العجلتين على دفع هذا الحمل اليائس طويلا ، فوقفت ، ومالت ، وانقلبت .

وهنا انقلب الفتى فظا وغلظ قلب الحياه ، فنهض واستعد بذراعه اليمنى لصدمة صدم بها السيد بيبسام فى صدره ، فترنح منها الى الخلف خطوات ، ثم قال بصوت متضخم فيه نبرة الوعيد : « انك سكران أيها الرجل ما فى ذلك شك ! فاذا خطر لك أيها الانسان الغريب مرة أخرى أن تعوقنى عن السير فسأحطم عظامك . فهل تريد أن تعلم ذلك ؟ » وأدار ظهره للسيد بيبسام وشد كاسكيته على رأسه واحكم وضعها

بحركة غاضبة ، ثم جعل يمتطى الدراجة دون أن يدخل فى جدل اطلاقا ، كلا · لكنه أخفق فى امتطاء الدراجة كما فعل فى المرة الاولى ، وعاد الى المحاولة مرة أخرى ، فاستقر فوق مقعده وتمكن من الآلة فى الحال · وشهد بيبسام ظهر الراكب يبتعد ويزداد فى ابتعاده سرعة ·

ووقف بيبسام هناك مبهور الانفاس محملقا فى أثر الفتى صنو الحياة ليراه لم يسقط عن دراجته ، ولم يقع له مصاب ، ولم ينفجر اطار ، ولم يقف فى طريقه حجر · وقد انطلق خفيفا · وهنا أخذ بيبسام يصرخ ويسب ، وكان يمكن أن يسمى هذا زمجرة زئير فهو لم يعد صوت انسان اطلاقا ·

كان يصرخ : « لن تمضى فى سيرك ! لن تفعل ذلك ! سر هناك بعيدا خارج طريق المقبرة ! أتسمع ؟ سترجل : ستترجل فى الحال ! أوه ، أوه ! ساشكوك ! سأبلغ عنك ! آه يا الهى لو وقعت ! لو أردت أن تقع أيها الوغد المغرور ، اذن لركلتك وضربت وجهك بحذائى أيها الشقى اللعين ··· » لم يشهد مثل هذا قط ! رجل سباب فى الطريق الى المقبرة ! رجل يزأر برأس منتفخ ، رجل يرقص من الشتم ولا يعرف أن يتمالك نفسه ·

واختفت الدراجة وتوارت عن الانظار ، فلم يعد يرى منها شىء · لكن بيبسام كان ما يزال هائجا مائجا فى نفس المكان ، وكان مايزال يصيح : « امسكوه ! انه يسوق دراجته فى الطريق الى المقبرة أليس كذلك أيها النذل ! أيها الولد الوقح ! أيها القرد اللعين !·· » وانتقل بيبسام من عبارات لا يسعنا أن نعيدها ودان يرغى ويزبد ، ويقذف بصوت متحجر أوضح الشتائم · وكان هياج بسمة يزداد نكرا على الدوام · وجاء بضعة اطفال يحملون سلة وكلباصغير، قادمين من الطريق السلطانى الى هذا المكان ، متسلقين فوق الخندق ، فأحاطوا بالرجل الصارخ ، وجعلوا يتأملون وجهه مستطلعين · وتنبه كذلك بعض الناس ممن يعملون فى العمائر الجديدة أو كانوا قد بدأوا فترة استراحة الظهر ولما يكادوا ، فقطعوا الطريق من هناك الى حث يتجمع الاطفال · لكن بيبسام كان ما يزال حانقا ، ماضيا فى حنقه ، تزداد حاله سوءا على الدوام · كان يهز قبضتيه صوب السماء ، أعمى مسعورا ، ويتجه بهما كل اتجاه ، ويرفس بقدميه ويدور حول نفسه ، ويحنى ركبتيه ثم ينفرد من الجهد الجهيد ليصرخ صراخا عاليا ··

لم يسترح لحظة فى السب ، ولم يتح لنفسه وقتا للتنفس ، وكان من دواعى الدهشة أن يواتيه كل هذا الكلام وقد تورم وجهه بصورة مخيفة ، وانزلقت قبعته العالية على قفاه ، وبرز قميصه الفوقانى المربوط حول وسطه ـ برزمن صدريته · وعند هذا كان قد وصل الى العموميات ، وتلفظ باشياء خارجة عن

الموضوع : توريات عن حياة الرذيلة التى عاشها واشارات الى الأديان أبداها فى لهجة غير مناسبة الى حد كبير ، وخلطها بشتائم خلطا يدل على الانحلال

وتجمهر الناس الآن من حوله فى جماعة كبيرة ، بعضهم يضحك ، وبعضهم يتأمله مقطب الجبين • وكان هناك مزيد من العمال أتوا من العمائر التى تبنى • ونزل سائق من مركبته الواقفة بالطريق السلطانى وعبر الخندق كما فعل غيره وسوطه فى يده ، وهز بيبسام رجل من ذراعه ، لكن هذا لم يجد • ومدت جماعة من الجند كانت تمر من هناك رقابها ومضت نحوه وهى تضحك • ولم يستطع الكلب الصغير أن يتمالك نفسه أكثر مما فعل فثبت قدميه الاماميتين على الارض وجعل ينبحه فى وجهه وقد ثنى ذيله بين فخذيه •

وبغتة صرخ لوبجوت بيبسام مرة أخرى بكل قواه : انزل ! انزل فى الحال أيها الرقيع الجاهل ! » ورسم بذراعه نصف دائرة وهوى الى الارض منهارا ، ورقد هناك مخروسا فجاءة وكأنه بين هؤلاء المتطلعين كومة سوداء • وطارت قبعته العالية المنحولة عن هذه الكتلة ، وقفزت عن الارض مرة ، ثم استقرت ببساطه •

وانحنى اثنان من البنائين على بيبسام وهو ملقى بلا حراك • وجعلا يتشاوران فى أمره بلهجة العمال من الرجال ـ تلك اللهجة المستقيمة المعقولة • ولم يلبث أحدهما أن انطلق وتوارى عن الانظار بخطى سريعة • وجرب المتخلفون بضع تجارب أخرى مع فاقد الوعى • فرشه أحدهم فى خابيته بالماء ، وصب آخر من زجاجة من العرق شيئا فى يده المجوفة ودلك ساقيه به • لكن هذه الالوان من العناية لم تتوج بالنجاح • ومرت برهة على هذه الحال • ثم سمع صوت عجلات ، ووصلت عربة على الطريق السلطانى ، وكانت عربة اسعاف فوقفت على المكان وكان مشدودا اليها جوادان صغيران جميلان ، وعلى كل من جانبيها صليب أحمر هائل مرسوم • وترجل رجلان يرتديان بزة رسمية لائقة من مقعد السائق ، وبينا كان احدهما يتوجه الجزء الخلفى من المركبة ليفتحه ويسحب السرير المتحرك قفز الآخر الى طريق المقبرة ، ونحى المستطلعين وجر السيد بيبسام بمعونة رجل من الشعب وارقد على السرير ، ودفع الى داخل المركبة كما يدفع بالرغيف الى فرن الخبيز • ثم أقفل الباب ثانية وتسلق لابسا البزة الى مقعد السائق ، وتم هذا كله بدقة عظيمة ، وببضع مسكات متمرسة ، بينا واضحا ، كما هى الحال فى مسرح القرود •

ثم ذهبا لوبجوت بيبسام •

محمود ابراهيم الدسوقى